قلعة أجياد بمكة المكرمة
(تاريخ ومعالم)

أ.عهـود عايـض الذويـبي
طالبة ماجستير - قسم التاريخ والآثار- كلية العلوم الاجتماعية
جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

المستخلص:

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على قلعة أجياد التاريخية في مكة المكرمة، باعتبارها إحدى أبرز الشواهد العمرانية والعسكرية التي ارتبطت بتاريخ الحرم المكي الشريف. تنبع أهمية الدراسة من كونها تتناول معلمًا معماريًا فريدًا مثّل جزءًا مهمًا من المنظومة الدفاعية للمدينة المقدسة، كما أنه يعكس أبعادًا سياسية وعسكرية واجتماعية ارتبطت بمراحل مختلفة من تاريخ مكة. وتعتمد الدراسة على المنهج التاريخي التحليلي والوصفي من خلال جمع الروايات التاريخية والنصوص الجغرافية والمصادر الوثائقية ذات الصلة، إلى جانب المقارنة النقدية بين ما ورد في المصادر التراثية والدراسات الحديثة. وقد خُلصت الدراسة إلى عدد من النتائج أبرزها: أن القلعة لم تكن مجرد حصن عسكري، بل مثلت رمزًا لسلطة الدولة العثمانية في الحجاز، وأسهمت في حماية الحرم المكي من الأخطار الخارجية، إضافة إلى كونها شاهدًا على الطراز المعماري العسكري العثماني في المنطقة. كما أظهرت النتائج أن هدم القلعة في بداية القرن الحادي والعشرين أثار جدلاً واسعًا بين الباحثين والمؤرخين حول جدلية الحفاظ على التراث العمراني مقابل متطلبات التوسع العمراني الحديث. وتبرز الدراسة في هذا السياق الحاجة إلى تفعيل الجهود البحثية الرامية إلى توثيق وحماية ما تبقى من المعالم التاريخية في مكة، بما يضمن حفظ ذاكرة المكان للأجيال القادمة ويحقق التوازن بين التطوير العمراني وصون الهوية التاريخية للمدينة.

الكلمات المفتاحية: قلعة أجياد، مكة المكرمة، العمارة العسكرية،التراث العمراني، التاريخ العثماني

Ajyad Fortress in Makkah
(History and Landmarks)

A.Ahoud Ayed Al-thuwaibi

Abstract:

This study aims to shed light on the historical Ajyad Fortress in Makkah, as one of the most significant architectural and military landmarks associated with the history of the Holy Mosque. The importance of this research lies in addressing a unique architectural monument that formed an integral part of the defensive system of the holy city, while also reflecting political, military, and social dimensions across different stages of Makkah's history. The study adopts the historical-analytical method through collecting historical accounts, geographical texts, and relevant documentary sources, in addition to conducting a critical comparison between traditional sources and

modern studies. The research has reached several findings, the most prominent of which is that the fortress was not merely a military stronghold, but also symbolized the authority of the Ottoman state in the Hijaz, contributing to the protection of the Holy Mosque from external threats. Furthermore, it stood as a testament to the Ottoman military architectural style in the region. The results also revealed that the demolition of the fortress at the beginning of the twenty-first century sparked wide debate among scholars and historians regarding the dilemma of preserving architectural heritage versus the demands of modern urban expansion. In this context, the study highlights the urgent need to strengthen research efforts aimed at documenting and safeguarding the remaining historical landmarks in Makkah, in order to preserve the memory of place for future generations and achieve a balance between urban development and the preservation of the city's historical identity.

Keywords: Ajyad Fortress, Makkah, Military Architecture, Urban Heritage, Ottoman History

التمهيد:

الحمد لله الذي لولاه ما جرى قلم، ولا تكلم لسان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صل الله عليه وسلم كان أفصح الناس لساناً وأوضحهم بياناً، أما بعد

كان تشييد القلاع، والأبراج، والحصون، والمدن المسورة في مقدمة ما عنى به الإنسان وينظر إلى تلك العمائر ذات الصفة الحربية على أنها من أبرز ما تركه الإنسان، وأقدمه منذ فجر التاريخ، وأكثره وضوحاً ودلالة على معالم تاريخه، فهي تعكس نظم الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية والسياسية والعسكرية وتطورها في السلم والحرب، كما ينظر إليها على أنها رمز للقوة والمنعة، ونتاج فكر، وخلاصة تجربة، ومقتضيات ظروف وحاجة، وتعبير عن صراع وإمكانات، وعنوان سيادة وتفوق، وانتصار لطرف وانكسار لطرف آخر. وربما كانت تلك العمائر أول ما شيدته يد الإنسان لتوفير أمنه بكل أبعاده، أمن الحياة وأسبابها وأمن الفكر والمعتقد، ولتحقيق السيادة والتفوق والامتداد، كما أنها ربما كانت قطب الرحى الذي دارت حوله واستهدفته المعارك الطاحنة التي خاضها الإنسان في صراعه من أجل ذلك.

كما ينظر إلى تلك العمائر على أنها كلما تقادم عليها العهد؛ ازدادت أهمية في دلالتها، وخاصة من الزاوية التاريخية والأثرية، وأصبحت الحاجة ماسة وأكثر إلحاحاً لدراستها للوقوف على خصائصها المعمارية وعناصرها الدفاعية وأهميتها في المكان الذي شيدت فيه، وذلك لرسم صورة صادقة لنموذج هام من نماذج العمارة الإسلامية الكثيرة في محيط زماني ومكاني محدد. وقد انتشرت العمارة الحربية في منطقة الجزيرة العربية في العصر العثماني، وتنوعت أنماطها فوجت منها القلاع والأبراج والحصون والمدن ذات الأسوار، وكان لتشييدها ظروف سياسية ودينية

وحربية، ففي بحثي هذا أتناول أحد هذه العمائر الحربية في العصر العثماني، بشبة الجزيرة العربية وهي قلعة أجياد الواقعة في شبة الجزيرة العربية وتحديداً منطقة الحجاز في مكة المكرمة، حيث سأتطرق إلى موقع القلعة وتاريخها، وتفاصيلها الداخلية بالإضافة إلى شكل العمارة العام، وأختم بحثي بهدم هذه القلعة وردود الفعل إزاء هدمها. تعتبر قلعة أجياد من العمائر الحربية، فإن كانت عمارة حربية فهل تخلو من الزخارف والتفاصيل الفنية؟ وما الأسباب التي أدت إلى هدم القلعة؟ وتظهر أهمية البحث في كونه سيلقي الضوء على تفاصيل قلعة أجياد، إبراز الشكل العام والتفاصيل لهذه القلعة، وتوضيح المعلومات المذكورة عنها وترتيبها، وتهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على بعض تفاصيلها الفنية المتوفر معلومات عنها، والتعرف على الأسباب التي أدت لهدم القلعة، وستتمثل حدود الدراسة في شبة الجزيرة العربية، تحديداً منطقة الحجاز في مكة المكرمة، في الإطار الزماني: 1196هـ - 1422هـ / 1784م - 2002م، وقد اعتمدت في عرض المادة و تنظيمها وتحليلها ومناقشتها على مجموعة من المناهج منها المنهج الوصفي والمنهج التحليلي المقارن كما اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة من المراجع العربية وعلى بحوث استقيتها من الدوريات والمجلات العلمية.

المقدمة:

يتناول هذا البحث دراسة قلعة أجياد التاريخية بمكة المكرمة، من خلال عرض موقعها الجغرافي وأسباب تسميتها، ثم تتبع تاريخها منذ نشأتها وحتى هدمها. تقع القلعة على جبل أجياد جنوب غرب المسجد الحرام، ويُعد موقعها ذا أهمية استراتيجية لحماية العاصمة المقدسة. بُنيت القلعة في العصر العثماني سنة 1196هـ/1784م بأمر الشريف سرور بن مساعد، ثم خضعت لعدة تجديدات أبرزها في عام 1302هـ/1884م على يد والي الحجاز عثمان نوري باشا، حيث أعيد بناؤها لتستوعب قوات كبيرة وتزودت بملحقات دفاعية متعددة.

تناول البحث تفاصيل عمارتها الداخلية والخارجية، حيث تميزت ببنائها من الحجر الجبلي الأسمر، وبتصميمها المربع ذي الأبراج الأربعة، إضافة إلى ما تضمنته من زخارف هندسية ونباتية، وشارات عسكرية منفذة بالرسم والحفر. كما عكست هذه العمارة الطابع الحربي للقلعة مع حفاظها على عناصر جمالية وزخرفية مميزة. وقد استعرض البحث مراحل السيطرة السياسية على مكة المكرمة بين الحكم العثماني والدولة السعودية الأولى، وما ترتب عليه من تغير ولاء القلعة تبعاً لتقلبات السلطة. ثم انتقل إلى هدم القلعة سنة 1422هـ/2002م ضمن مشروع وقف الملك عبد العزيز وأبراج البيت.

أثار هدم القلعة ردود فعل واسعة، خصوصاً من الجانب التركي الذي اعتبرها إرثاً عثمانياً، بينما أكدت المملكة أن الإزالة جاءت لخدمة التوسعة واستيعاب أعداد الحجاج والمعتمرين. وقد أبرز البحث جدلية الموازنة بين الحفاظ على الآثار التاريخية ومتطلبات خدمة الزوار وتوسعة الحرم. ومن خلال هذه الدراسة يتضح أن قلعة أجياد تمثل نموذجاً معمارياً وتاريخياً يعكس تداخل السياسة والدين والعمارة في مكة المكرمة، كما أن جدل هدمها يعكس صراعاً بين الذاكرة التاريخية ومتطلبات الحاضر.

تُعدُّ مكة المكرمة من أبرز المدن الإسلامية التي احتضنت عبر تاريخها معالم عمرانية وعسكرية ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بحماية الحرم المكي الشريف وتنظيم شؤون الحجاج والمعتمرين.

ومن بين هذه المعالم برزت قلعة أجياد باعتبارها حصنًا استراتيجيًا شُيّد في العهد العثماني على مقربة من المسجد الحرام، لتكون رمزًا للقوة وحمايةً للمدينة المقدسة من الأخطار الخارجية. ورغم الأهمية التاريخية والمعمارية التي مثلتها القلعة، فإن هدمها في مطلع القرن الحادي والعشرين مثّل محطة جدلية أثارت نقاشًا واسعًا حول موازنة الحفاظ على التراث العمراني ومتطلبات التطوير الحديث، تنبع مشكلة البحث من قلة الدراسات الأكاديمية المتخصصة التي تناولت القلعة دراسةً شاملةً من حيث بنائها ووظيفتها التاريخية ودلالاتها السياسية والمعمارية، فضلاً عن تأثيرها في الذاكرة الجماعية لأهل مكة والمهتمين بتراثها. ومن هنا جاءت أهمية هذه الدراسة في سد هذه الفجوة العلمية، عبر إعادة قراءة تاريخ قلعة أجياد ودورها في حماية الحرم المكي وإبراز مكانتها كأحد الشواهد العمرانية الفريدة في تاريخ الحجاز، وتهدف الدراسة إلى توضيح الظروف التاريخية التي أدت إلى تشييد القلعة، والكشف عن وظيفتها العسكرية والسياسية والاجتماعية، إضافة إلى تتبّع مآلاتها وصولاً إلى مرحلة هدمها وما أثارته من جدل ثقافي وإعلامي. ولتحقيق هذه الأهداف، اعتمد الباحث على المنهج التاريخي التحليلي من خلال مراجعة المصادر التاريخية والجغرافية والوثائقية ذات الصلة، ومقارنتها بالدراسات الحديثة التي تناولت القلعة، وبذلك تسعى هذه الدراسة إلى الإسهام في إثراء المعرفة بتاريخ مكة المكرمة ومعالمها، وإبراز قيمة التراث العمراني بوصفه عنصرًا مهمًا من عناصر الهوية التاريخية والحضارية للمدينة.

نبذة عن القلعة موقعها وسبب التسمية:

توجد القلعة في مكة المكرمة، تقع مكة المكرمة غرب الجزيرة العربية، وتبعد عن المدينة المنورة حوالي 400 كيلومتر في الاتجاه الجنوبي الغربي، وعن مدينة الطائف حوالي 75 كيلومترا في الاتجاه الشرقي، وعلى بعد 72 كيلو متراً من مدينة جدة وساحل البحر الأحمر، موقعها بالنسبة لخطوط الطول ودوائر العرض، فهي تقع عند تقاطع درجتي العرض 21/25 شمالاً، والطول 39/49 شرقاً، ويُعد هذا الموقع من أصعب التكوينات الجيولوجية، فأغلب صخورها جرانيتيه شديدة الصلابة.

تبلغ مساحة مدينة مكة المكرمة حوالي 850 كم2، ويبلغ ارتفاع مكة عن مستوى سطح البحر حوالي 277 متراً، وقد ذكرت في البداية أن القلعة تقع في مكة المكرمة، فموقعها بالتحديد في مكة على جبل أجياد الواقع في شعب أجياد، الذي يبلغ ارتفاعه 150 متراً جنوب غرب الحرم الشريف، وتشكل مع قلعتين أخريين هما لعلع وهندي المشيدتين غرب المسجد وشماله[1]. (صورة رقم1)، وسميت بذلك نسبةً للشِعب الذي تقع فيه القلعة، ويطلق أسم أجياد أو جياد على شعبين كبيرين من شعاب مكة، يأتي أحدهما من الجنوب، يقسم خما الماء فيتجه شمالاً، والأخر يأتي من الشرق من جبل الأعراف، ثم يجتمعان أمام المسجد الحرام من الجنوب، فيدفعان في وادي إبراهيم، فيقول الأعشى ذكراً لـ أجياد في إحدى أبياته:

فما أنت من أهل الحجون ولا الصفا * ولا لك حق الشرب من ماء زمزم
وما جعل الرحمن بيتك في العلا * بأجياد غربي الصفاء والُمحَّرم

وقال بشر بن أبي حازم:

حلفت برب الداميات نحورها ** وما ضم أجياد المصلى وما ذهب

وقال أبو بكر العبدي العدني:

حي أحبابنا بمكة ما بين *** الصفاء وبين جياد

فالاسم في الأصل جمع جواد والجواد هو الخيل فكان هذا الموقع عبارة عن موضع قيل قديماً أن الله سبحانه تعالى سخر جياد الخيل لإسماعيل عليه السلام، ورويَ أن العرب تجمع الجواد من الخيل على أجياد، فقد جاء أن المحل إنما سمي بأجياد لأن مضاض بن عمرو الجرهمي ضرب فيه أجياد مائة رجل من العمالقة، وقيل: إنما نسبت إلى أجياد الظباء، أي: أعناقها، والتي يضرب بها المثل في الحسن والجمال وفتنة التلفت، وقد كانت الظباء منتشرة ترعى في هذا الموضع، فلما أتصل بها العمران هجرته، وقيل: سُمي بذلك؛ لأن تبعاً لما قدم مكة ربط خيله فيه، لذلك أطلق عليه جياد ونُسب للقلعة نفس الاسم لوقوعها في هذا المكان المسمى بذلك([2]).

تاريخ القلعة:

بنيت القلعة في العصر العثماني، أمر ببنائها حاكم مكة الشريف سرور بن مساعد([3]) على تلة تطل على المسجد الحرام لحماية العاصمة المقدسة، ومنها كانت تضرب المدافع في رمضان، وقد تم انشئها حينما كانت الأوضاع الأمنية بمكة عامة غير مستتبة عام 1196 هـ/1784م([4])، حيث تنازع الأشراف آن ذاك على السلطة فخاف الشريف سرور من أن هذه النزاعات قد تؤدي للإضرار بالكعبة إذا التحمت الجماعات المتنازعة، فأمر ببناء قلعة لحماية مكة والحرم، فتوافد على مكة الكثير من أرباب العمارة والعمال والحرفيين من أجل بناء قلعة مكة، وعين موقع البناء وكان على جبل أجياد المقابل من المسجد الحرام من الناحية الجنوبية على الجانب الأيسر لحي أجياد، وبعد عامين من بداية العمل أنتهى العمال من بناء القلعة وكان من ضمن منظومة القلعة قصور تقع في أسفل القلعة ممتدة على سفح الجبل وبعض الأحواش والأسوار العالية، وعندما شاهدها الشريف رأى انها لم تكن على قدر المتانة التي كان يأمل فيها فأمر بهدمها وإعادتها على أحسن من ذلك وأمتن، وتكشف الروايات التاريخية أن مشروع بناء قلعة أجياد لم يكن مجرد مبادرة محلية محدودة، بل استقطب أعداداً من المهندسين والعمال المهرة من داخل الحجاز وخارجه، ما يعكس الاهتمام البالغ بمكة المكرمة ومكانتها في الوجدان الإسلامي. وقد اتُّخذ جبل أجياد موقعاً للقلعة لما يوفره من سيطرة بصرية على المسجد الحرام والطرق المؤدية إليه، وهو ما جعلها حصناً استراتيجياً في غاية الأهمية، لم يقتصر دور القلعة على الدفاع العسكري، بل ارتبطت بالحياة الاجتماعية والدينية لسكان مكة، إذ جرى استخدام مدافعها للإعلان عن دخول شهر رمضان والإفطار، فغدت رمزاً مألوفاً في ذاكرة المكيين وزوار الحرم الشريف. كما أن إعادة بنائها بعد المرة الأولى تعكس إدراك الشريف سرور لحساسية المرحلة السياسية، ورغبته في إظهار قوته وقدرته على حماية الحرم من النزاعات الداخلية والخارجية، تُبرز القلعة جانباً مهماً من العمارة الدفاعية العثمانية في الحجاز، إذ جمعت بين الطابع العسكري والزخرفة الفنية التي لم تخلُ منها المباني الإسلامية، ما جعلها تمثل توازناً بين المتانة والجمال. وبذلك، فإن قلعة أجياد لم تكن مجرد حصن، بل علامة على السيادة السياسية، ورسالة واضحة بأن مكة المكرمة محمية ومصانة([5]).

تجديد القلعة في العصر العثماني:

دخلت الحجاز تحت الحكم العثماني عام 922هـ/1516م، بعد معركة مرج دابق التي انتصرت فيها الدولة العثمانية على بقايا دولة المماليك في مصر، فقد أنهت هذه المعركة وجود الممالك.

فبعد المعركة وبعد هذا الانتصار لقب السلطان العثماني سليم الأول[6] بـ خادم الحرمين الشريفين وكان يلقب به سلاطين المماليك بحكم تبعية الحجاز لهم فكانت شرافة مكة للأشراف وولائهم للحكومة العثمانية، بقيت مكة تحت السيادة العثمانية إلى أن ظهرت الدولة السعودية الأولى وضمتها إلى كنفها بعد معارك عدة مع الأشراف وفي النهاية دخلت مكة تحت السيادة السعودية في عام 1219هـ/1804م، وأستمر ولائها للدولة السعودية الأولى إلى أن قامت الدولة العثمانية بإعادة السيطرة عليها في عام 1227هـ/1813م حين تمكنت الحملة التي أرسلتها الدولة العثمانية بقيادة طوسون علي باشا وبمساعدة الشريف غالب تمكن من انتزاعها من الحكم السعودي وعاد ولائها للدولة العثمانية، في عام 1302هـ/1884م عاد بناءها والي الحجاز عثمان نوري باشا، وقد تم العمل على أساس استيعاب القلعة لطابور واحد من الرجالة، والطابور يقدر بنحو 800 شخص، هذا فضلاً عن استيعابها لنحو 300 شخص، وأنشأ فيها غرفاً لعساكر المدفعية، ومستودعا للأسلحة، وبقيت على حالها بعد تجديدها إلا ان تم هدمها في عام 1422هـ/2002م، (صورة رقم 2)، وتُعد فترة الحكم العثماني للحجاز مرحلة حاسمة في تاريخ مكة المكرمة، إذ جلبت معها تغييرات سياسية وإدارية كبيرة أثرت على عمارة المدينة ونظامها الدفاعي. بعد انتصار العثمانيين في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م، وتوّج السلطان سليم الأول بلقب خادم الحرمين الشريفين، أصبح للحجاز وضع خاص ضمن الإمبراطورية العثمانية، حيث ضُمنت حماية الحرم الشريف وقيادة الأشراف المحليين تحت إشراف الدولة المركزية. وقد أتاح هذا التنظيم نوعاً من الاستقرار النسبي في مكة، وإن كانت النزاعات الداخلية بين الأشراف لم تتوقف بالكامل، ما استدعى تعزيز مواقع الحماية مثل قلعة أجياد، التي لعبت دوراً أساسياً في حفظ الأمن ومراقبة أي تحركات تهدد الحرم، تأخذ السيطرة على مكة أبعاداً سياسية معقدة، حيث شهدت المدينة انتقال ولائها بين الدولة السعودية الأولى والعثمانيين. في عام 1219هـ/1804م، ضمّتها الدولة السعودية بعد معارك متعددة، إلا أن السيطرة لم تدم طويلاً، فبحلول 1227هـ/1813م استعادت الدولة العثمانية المدينة بقيادة حملة طوسون علي باشا، مدعومة بالشريف غالب. هذا التناوب في السلطة يعكس تذبذب النفوذ الإقليمي على مكة، ويبرز الدور المركزي للقلعة ليس فقط كحصن دفاعي، بل كمؤشر على السلطة السياسية ومركز للسيطرة على المدينة[7]. ومع وصول والي الحجاز عثمان نوري باشا في عام 1302هـ/1884م، شهدت قلعة أجياد تطويراً واسعاً لاستيعاب طابور كامل من الجنود يصل إلى ٨٠٠ شخص، إلى جانب 300 فرد إضافي، مع تجهيز غرف لعساكر المدفعية ومستودعات للأسلحة. هذا التحديث يعكس وعي الدولة العثمانية بأهمية العمارة العسكرية الحديثة في حماية المواقع المقدسة، كما يظهر اهتمامهم بتوفير بنية تحتية قادرة على الصمود أمام أي تهديد داخلي أو خارجي، وتتعدى أهمية القلعة الجانب العسكري إلى البعد الاجتماعي والديني، إذ كانت مدافعها تُستخدم للإعلان عن مواعيد الصلوات وشهر رمضان، ما جعلها جزءاً من الحياة اليومية لسكان مكة. بالإضافة إلى ذلك، يُظهر الاهتمام بإعادة بناء القلعة بعد أي تهالك أو نقص في متانتها إدراك الحكام لحساسية المرحلة السياسية، ورغبتهم في الحفاظ على توازن بين الأمن والاستقرار والقدسية الدينية، إن دراسة هذه الفترة تُبرز مدى تأثير القوى الإقليمية على بنية المدينة وتاريخها، وتكشف كيف ارتبطت التحصينات العسكرية بالسيطرة السياسية، وأهمية دمج التحليل الاجتماعي والديني مع المعماري

لفهم تاريخ مكة في العصر العثماني، ولعل هدم القلعة في 1422هـ/2002م يُظهر التحديات المستمرة في موازنة التراث التاريخي مع حاجات التطوير العمراني واستيعاب أعداد الحجاج المتزايدة، مما يعكس جدلية دائمة بين حماية الماضي وتلبية متطلبات الحاضر([8]).

تفاصيل العمارة في القلعة:

بنيت هذه القلعة من الحجر الجبلي الأسمر غير المهذب، وهو متوفر في جبال مكة المكرمة بكثرة، وكسيت جدران القلعة من الداخل والخارج بطبقة من الملاط([9]) الأبيض المصفر ليكسبها المتانة في تماسك الأحجار([10])، والقلعة صغيرة الحجم مربعة الشكل في وسطها صحن مكشوف وفي أركانها الأربعة أربعة أبراج مرتفعة، وكانت بمساحة تبلغ 800 متر مربع لتضم 800 جندي الى جانب 300 شخص آخر، وهي تضم ملحقات من بينها قاعات خاصة للمدافع ومستودعات للذخيرة كما سورت بجدران ارتفاعها ثلاثة أمتار لحمايتها ([11])، وكان التنفيذ في هذه المنشأة من حيث المادة الخام إلى نوعين هما: الملاط والآجر ومن حيث الطرق والأساليب الصناعية الى ثلاث انواع هما: الحفر، والرسم، والرص. وبالرغم من أنها عمارة حربية إلا أنها لم تخلوا من التفاصيل الزخرفية، فالزخارف المنفذة فيها قد انقسمت إلى فرعين رئيسيين، هما أشكال هندسية وأشكال نباتيه ويندرج تحت هذين النوعين أنواع أخرى متعددة، فقد نفذ فيها الشكل الهندسي المعروف باسم خاتم سليمان (شكل رقم1)، فهو عبارة عن وحدة هندسية تتآلف من تعاكس مثلثين كما نفذ عليها الشكل الآخر من أشكال خاتم سليمان وهو ما يعرف بالمفتاح كان عبارة عن وحدة هندسية تشبه الحرف الافرنجي z وطبق بالتكرار فنتج عن تداخلها وتقاطعها ظهور نجمتين واحدة بداخل الآخر ويتوسط الداخلية منها نجمة صغيرة وكان هذا على البوابتين الداخليتين بالقلعة، كذلك مُثل فيها ما يعرف بالسرر (شكل رقم2) نوع من أشكال الزخارف، ومن الأشكال المهمة المنفذة عليها سيارتان عسكريتان (شكل رقم 3 صورة رقم 3)، نفذتا بالرسم والالوان الاول نفذت باللون الأبيض المقلم بالأصفر على أرضية بيضاء وهي مرسومة في المنطقة التي تعلو باب أحد الغرف من الداخل بالطابق العلوي في الجانب الشرقي من القلعة وبسبب عوامل التعرية فقد طمست بعض معالم الشارة مما حال دون معرفة تفاصيلها، وما تبقى من رسمها نلاحظ أنها تتألف من دائرتين واحدة داخل الأخرى، وبجانب الدائرة شكل يشبه الجناحين الممتدين إلى أعلى، ويتدلى من أسفلها فروع نباتية متعرجة، بعضها ينتهي بفرعين معكوفين وبعضها ينتهي بفرع نباتي معكوف، كما نفذ بالجانب الأيمن للجناح الأيمن شكل يشبه ماسورة المدفعية، في حين نفذ بالجانب الأيسر للجناح الأيسر شكل مسدس، وأيضا مثل بكل من الركنين السفليين للمربع شكل مستطيل، أفقي الوضع ملون باللون الأسود، يعلو الأيسر منها نجمة سداسية الزوايا باللون الأصفر، أما الشارة العسكرية الأخرى فقد نفذت باللون الأسود على أرضية بيضاء اللون، وذلك في المنطقة التي تعلو إحدى الفتحات بالطابق العلوي في الجهة الغربية بقلعة أجياد، ولا تزال هذه الشارة في حالة سليمة، حيث توسطها دائرتين إحداهما بداخل الأخرى، ويرتكز على المحيط العلوي للدائرة الخارجية شكل قمع فوهته الواسعة إلى أعلى، يخرج منها شكل يشبه الشعلة، ويحف بكل من الجانبين اللذين يحفان بالدائرة الخارجية التي تتوسط الشارة شكل الجناح تتجه إلى جانبه الخارجي سهام وأقواس وبنادق وسيوف. وقد نفذ على الشكلين الدائريين كما اللذين يتوسطان

الشارة شكل ماسورتي مدفع رسمت على هيئة علامة (X)، ترتكز هذه الشارة على فروع نباتية منعقدة ([12]).

هدم القلعة:

كما ذكرت سابقاً أن مكة عادت للحكم العثماني بعد ما انتزعتها من السعوديين في دولتهم الأولى وأستمر ولائها متذبذباً يعود في النهاية للحكم العثماني، إلا أن قامت الدولة السعودية الثالثة وضمتها إلى كنفها في عام1344هـ/1925م، واستمرت تحت حكم الأخيرة حتى عصرنا الحاضر، وفي عام 1422هـ/2002م أمر الملك فهد بن عبد العزيز([13]) بأن تكون تابعة لأوقاف الحرم الشريف، ومن ثم هدمت بعد ذلك وبني على أنقاضها وقف الملك عبد العزيز، كما تم إزالة الجبل الواقعة عليه وبني مكانها مشروع أبراج البيت ([14])، وقد أدى هذا الهدم الأخير إلى احتجاجات وصيحات تخريب ثقافي طائش من قبل دعاة الحفاظ على البيئة في تركيا. وقارنت أنقرة هدم أجياد بتدمير طالبان لباميان بوذا في أفغانستان، كما ناشد رئيس البرلمان التركي مراد سوكمين أوغلو الحساسيات الدينية والقومية، واصفاً تصرفات السعودية بأنها "غير إسلامية". وأوضح سوكمين أوغلو على موقع بي بي سي الشرق الأوسط على الإنترنت أن "تدمير دولة مسلمة للتراث التاريخي لدولة أخرى على أرض مقدسة هو سلوك خاطئ ينتهك القيم الأخلاقية للإسلام والأخوة الدينية والفطرة السليمة." إنّ عملية هدم القلعة أثارت ردود فعل محلية ودولية، وحاولت الخارجية التركية ومؤسسات أخرى منع الهدم، ولقد قام حزب اليسار الديمقراطي التركي بمُقاطعة السفر إلى السعودية، كما قامت وكالة الأنباء الفرنسية بنقل عن وزير الشؤون الإسلامية في المملكة العربية السعودية، صالح آل الشيخ، قوله إنه لا يحق لأحد التدخل في قرارات المملكة الداخلية، مضيفة أن المشروع يهدف إلى استيعاب الحجاج والمعتمرين وخدمة زوار بيت الله.

فالاحتجاجات التركية على هدم القلعة جاءت ونبعت من كون القلعة أثر من الأثار التركية وليست إسلاميه كما تدعي احتجاجاتهم، فمن حق تركيا تطالب بالحفاظ على أثراها التركية وليست الإسلامية والسبب يعود إلى أن تركيا الحديثة قامت بعد بناء القلعة بمئة وخمسين عاماً لذلك فهذه القلعة هي اثراً إسلامياً وليساً تركياً، فالأثار الإسلامية مهما كانت ذات عمق زمني وقيمة عظيمة فإن أهميتها لا تغلب مصالح الحفاظ على الحقوق الإنسانية والدينية للمسلمين، وقد أعطى هذا المبدأ للمملكة الحق الشرعي لإزالة لآثار إسلامية أكثر أهمية من قلعة أجياد، فالمملكة مطالبة من الشعوب الإسلامية بأن عليها مهمة تسهيل زيارة البيت الحرام للمسلمين وتيسر لهم كذلك الطواف والصلاة والسعي بالإضافة إلى توفير فرص سكن في مكة المكرمة لهؤلاء الزوار. فإن هذه المتطلبات لا تتحقق الا بإقامة مشاريع عملاقة لتوسعة الحرم والمناطق المحيطة به لتوفير مساحات لبناء منشأة سكانية حتى تستوعب الاعداد الكبيرة من زوار بيت الله الحرام، وهذه الحقائق لا يمكننا الجزم بانها غائبة عن المسؤولين الأتراك، ولكن ما جعلهم يتعامون عن تلك الحقائق هو تطلعهم الدائم إلى العودة للعالم الإسلامي عن طريق إثارة زوابع مثل هذه، لكن من المؤسف انهم لم يعودوا يعرفوا لغة الخطاب مع العالم الإسلامي، فنرى انهم استعاروا الخطاب الغربي ليقارنوا بين إزالة قلعة أجياد وبين ما قامت به طالبان عندما دمرت الآثار البوذية في (باميان)، ومن هنا نرى ضبابة التيه السياسي التركي، وأنهم اصبحوا غير قادرين على التفريق بين

مشاعرهم وحديث عقولهم، فيريدون أن يكونوا رواد حضارة في العالم الإسلامي، وأوروبيين أكثر من الأوروبيين في الوقت نفسه([15]).

الخاتمة:

إنَّ دراسة قلعة أجياد في مكة المكرمة تكشف عن أهمية هذا الصرح المعماري والتاريخي الذي ارتبط بعصور مختلفة، بدءاً من العصر العثماني وحتى العصر الحديث. فقد أُنشئت القلعة في موقع استراتيجي جنوب غرب المسجد الحرام لتكون حصناً دفاعياً يحمي العاصمة المقدسة من الأخطار، وتعكس في الوقت ذاته اهتمام الحكام المتعاقبين بالحفاظ على أمن مكة وحرمها الشريف. وقد أظهر البحث أن بناء القلعة وتجديدها لم يكن مجرد مشروع عمراني، بل كان استجابة مباشرة للظروف السياسية والعسكرية التي شهدتها المنطقة، سواء من حيث النزاعات الداخلية بين الأشراف أو التحديات الخارجية التي واجهتها الدولة العثمانية.

ومن خلال دراسة تفاصيل العمارة في القلعة، يتضح أن البعد العسكري لم يلغِ البعد الجمالي، إذ جمعت بين الوظيفة الدفاعية والزخارف الفنية التي زُينت بها جدرانها وأبوابها. وهذا يعكس طبيعة العمارة الإسلامية التي غالباً ما تمزج بين القوة والجمال، حتى في المباني ذات الطابع الحربي. كما أن تحليل الأدوار التاريخية للقلعة أوضح أنها كانت شاهداً على تحولات السلطة في مكة المكرمة، بين الدولة العثمانية والدولة السعودية الأولى، مما يجعلها رمزاً لتقاطع التاريخ السياسي والعسكري والديني في المنطقة.

أما هدم القلعة سنة 1422هـ/2002م فقد أثار جدلاً واسعاً بين من يرى ضرورة الحفاظ على التراث المعماري وبين من يبرر الإزالة لحاجة التوسعة واستيعاب أعداد الحجاج المتزايدة. وبذلك تطرح قضية قلعة أجياد سؤالاً جوهرياً حول كيفية الموازنة بين متطلبات الحاضر واحترام الذاكرة التاريخية. فبينما تمثل القلعة إرثاً معمارياً فريداً، فإن مشاريع التوسعة تبقى جزءاً أساسياً من خدمة الملايين من زوار بيت الله الحرام، توضح دراسة التوسع العمراني والتحصينات العسكرية في مكة خلال الحقبة العثمانية والدولة السعودية الأولى أن وجود القلعة لم يكن مقصوراً على الجوانب الدفاعية فحسب، بل امتد ليشمل الأبعاد الرمزية والاجتماعية. فالقلعة، بموقعها المرتفع على جبل أجياد، كانت تمثل رمزاً للسيادة والنفوذ، وأداة بصرية لإظهار قدرة الحكام على حماية الحرم الشريف وتأمين حياة السكان والزوار. كما أنها لعبت دوراً تربوياً في تشكيل إدراك المجتمع لأهمية الأمن والاستقرار، إذ ارتبطت مباشرة بالروتين اليومي ومواعيد العبادة من خلال استعمال المدافع للإعلان عن مواعيد الصلاة وفترة الصيام.

إن تتبع مراحل السيطرة السياسية على مكة يبرز مدى تقلب النفوذ في المنطقة، فالتناوب بين الدولة السعودية الأولى والدولة العثمانية لم يقتصر على السلطة فقط، بل امتد إلى تنظيم الحياة المدنية والعسكرية والاقتصادية في المدينة. هذا الواقع يعكس أن القلعة كانت مركز ثقل للسيطرة السياسية، ومقياساً لاستقرار المدينة، حيث كانت كل حكومة تسعى لضمان قدرتها على فرض النظام وإدارة النزاعات الداخلية من خلال السيطرة على المباني التحصينية المهمة.

علاوة على ذلك، يوضح التحليل أن تحديث القلعة وتجهيزها بعدد كبير من الجنود وغرف المدفعية ومستودعات الأسلحة لم يكن مجرد عمل تقني، بل كان جزءاً من استراتيجية شاملة

لضمان حماية مكة من أي تهديد داخلي أو خارجي، بما يعكس فهماً عميقاً لموقع المدينة الديني والدولي. كما أن الاهتمام بالتصميم المعماري، حتى في المباني العسكرية، يظهر حرص الحكام على دمج الجمال الفني مع المتانة الدفاعية، وهو ما يعكس الروح المعمارية الإسلامية التي تجمع بين الوظيفة والزينة.

وتضيف هذه الدراسة أيضاً بعداً مهماً يتعلق بجدلية الحفاظ على التراث مقابل التطوير العمراني، فقد أدى نمو أعداد الحجاج والمعتمرين إلى ضرورة اتخاذ قرارات صعبة تتعلق بإزالة بعض المباني التاريخية لإفساح المجال للمشاريع العمرانية الكبرى، وهو ما حدث في حالة هدم قلعة أجياد عام 1422هـ/2002م. هذا القرار، رغم ما أثاره من جدل محلي ودولي، يعكس المواز الاستنتاجات:

١- قلعة أجياد ليست مجرد مبنى عسكري، بل معلم تاريخي يوثق مراحل مهمة من تاريخ مكة المكرمة.

٢- العمارة الدفاعية في القلعة جسدت مزيجاً من القوة العسكرية والزخرفة الإسلامية.

٣- جدلية هدم القلعة تكشف عن صراع متكرر بين الحفاظ على التراث وتلبية حاجات التوسع العمراني.

٤- البحث يؤكد أن دراسة التراث المعماري الإسلامي لا تقتصر على الجانب التاريخي، بل تتضمن أبعاداً سياسية واجتماعية وحضارية.

وبذلك، فإن قلعة أجياد تمثل نموذجاً فريداً لدراسة العلاقة بين المكان والتاريخ والسياسة والعمارة، وتظل مثالاً حياً للتحديات التي تواجه المدن المقدسة في الجمع بين المحافظة على التراث ومتطلبات التطوير الحديث.

صورة رقم(1)

مشهد القلعه خلف الحرم المكي الشريف

https://www.google.com/url?sa=i&url=https%3A%2F%2Fwww.marefa.org

صورة رقم (2)

صوره للقلعة من الخارج

https://www.google.com/url?sa=i&url=https%3A%2F%2Fmiddle-east-online.com

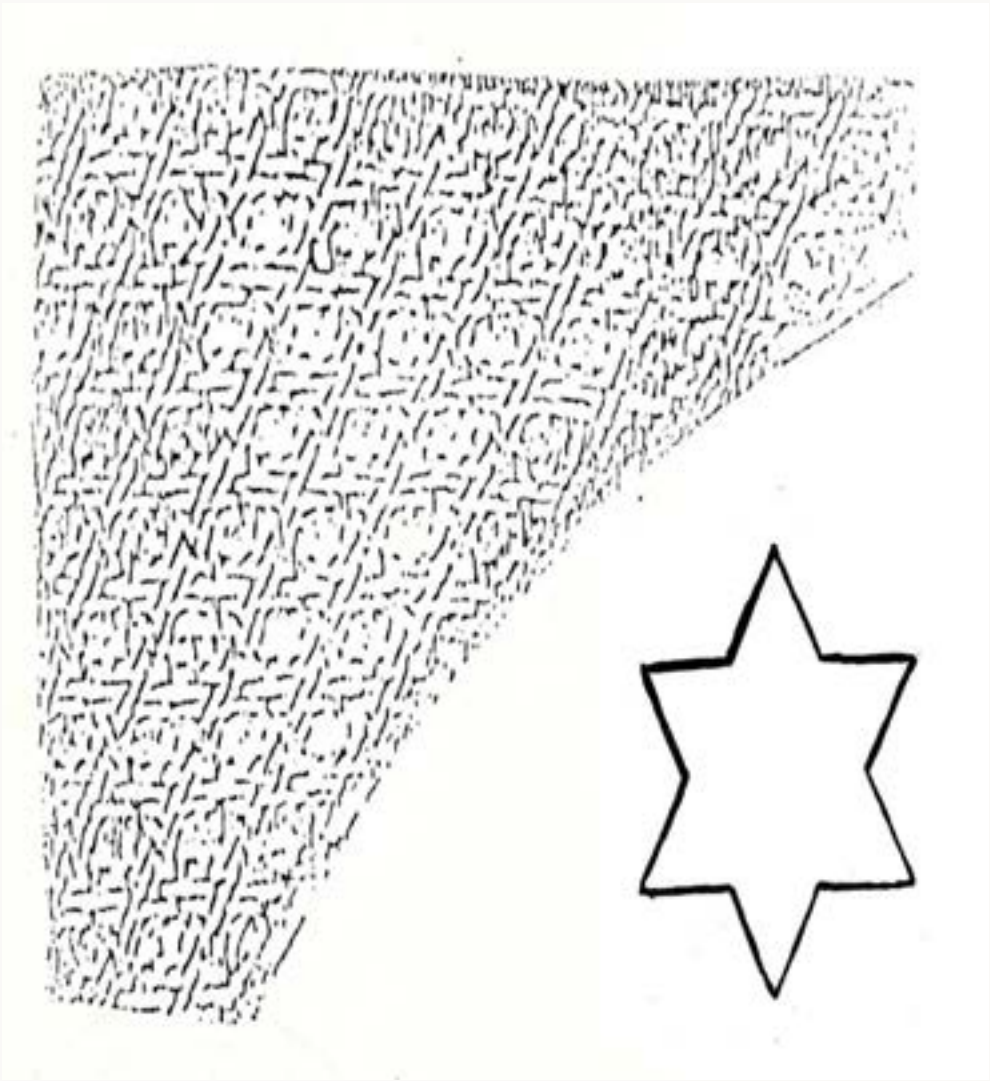

شكل رقم (1)

خاتم سليمان

ناصر بن علي الحارثي، زخارف الملاط والآجر في دار الهناء وقلعة اجياد ومنزل آل القرع بمكة المكرمة، مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، ع9، 1415هـ/1994م، ص313.

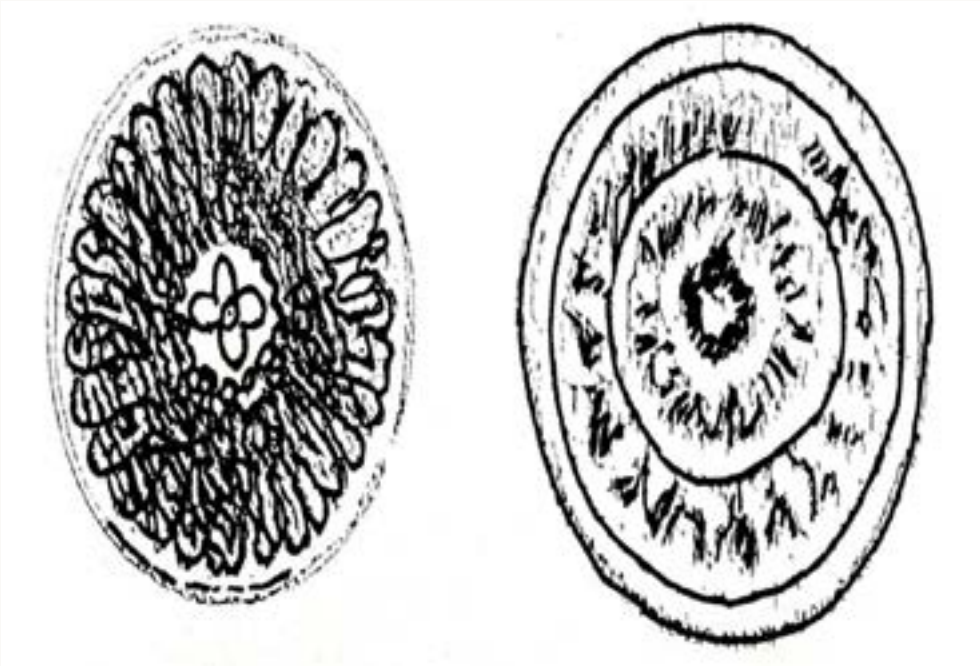

شكل رقم (2)

السرر

ناصر بن علي الحارثي، زخارف الملاط والآجر في دار الهناء وقلعة اجياد ومنزل آل القرع بمكة المكرمة، مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، ع9، 1415هـ/1994م، ص314.

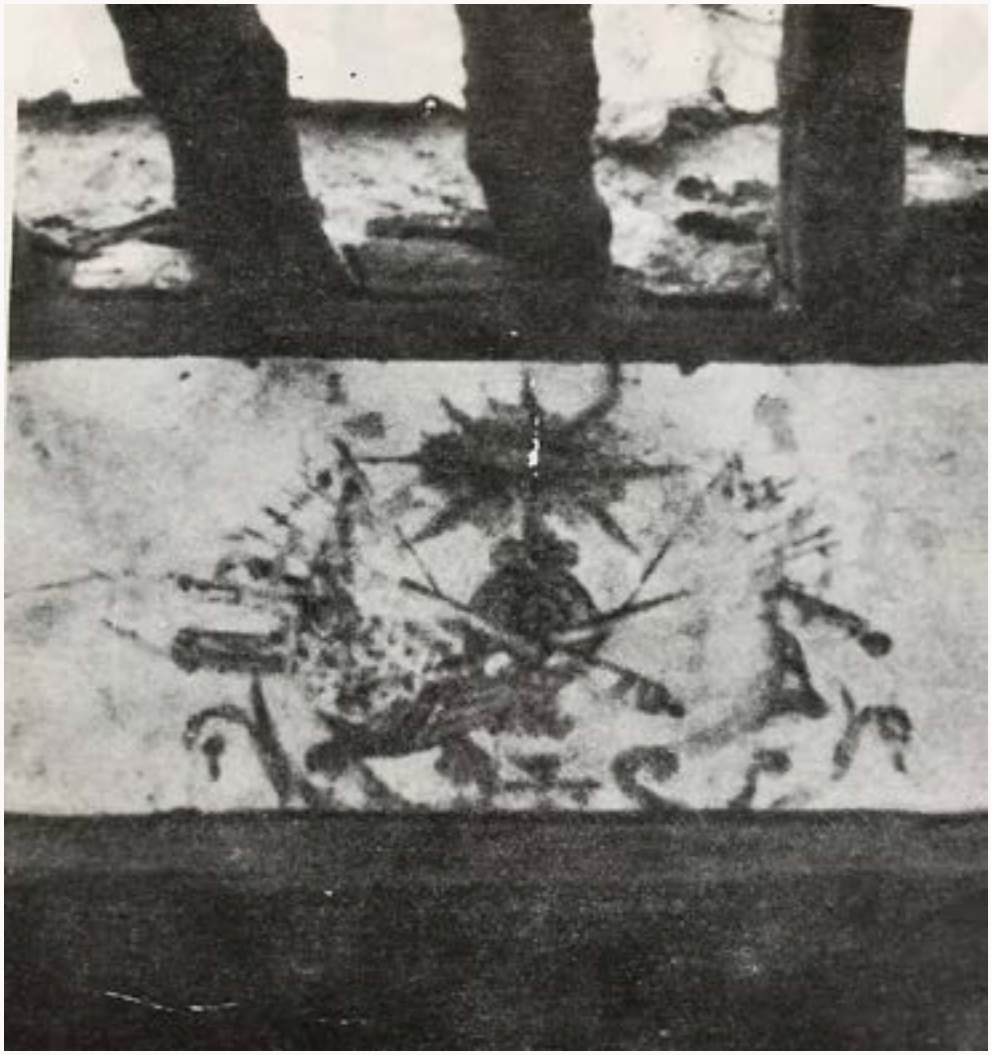

صورة رقم (3)

الشارة العسكرية الثانية

ناصر بن علي الحارثي، زخارف الملاط والآجر في دار الهناء وقلعة اجياد ومنزل آل القرع بمكة المكرمة، مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، ع9، 1415هـ/1994م، ص316.

شكل رقم (3)

رسم توضيحي للشارة العسكرية الثانية

ناصر بن علي الحارثي، زخارف الملاط والآجر في دار الهناء وقلعة اجياد ومنزل آل القرع بمكة المكرمة، مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، ع9، 1415هـ/1994م، ص314.

الهوامش:

(1) العيسي: سامية، قلعة أجياد عين مكة الحارسة ومنطلق مدفع رمضان، صحيفة الوطن الإلكترونية، 2014/7/12م. https://www.alwatan.com.sa/article/232297

(2)البلادي: عاتق بن غيث، معالم مكة التاريخية والأثرية، ط1، مكة المكرمة، دار مكة، 1400هـ/1980م، ص14

(3)سرور بن مساعد: شريف مكة من1186 - 1202هـ/ 1772 - 1786م والتي تولى شرافتها يوم الثالث عشر من ذي القعدة عام 1186 هـ وعمره 19 سنة، حيث نودي له في شوارع مكة بالإمارة واستطاع الشريف سرور أن ينظّم أمور الحجّاج الداخلية والخارجية، ونظّم أمور القبائل وقضى على رموز الشر والفتن الذين يعترضون الحجاج في مكة والمدينة. أنظر، جارشلي: إسماعيل حقي، أشراف مكة المكرمة وأمرائها في العهد العثماني، ترجمة: خليل علي، ط1، بيروت، الدار السباعي: احمد، تاريخ مكة، ط7، مكة المكرمة، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1415هـ/1994م، ص446

(4) الأزرقي: محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق: رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، ١٩٦٥م، ج١، ص ٢٤٥–٢٤٨؛ الفاسي: تقي الدين محمد، شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ ج٢، ص ٥٣–٥٨؛ سنوك هرخرونيه، كريستيان، صفحات من تاريخ مكة، ترجمة: دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٠هـ ص ١٣٢–١٤٠؛ الفقي، عبد الله، «العمارة الدفاعية في الحجاز خلال العصر العثماني.» مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٣، ٢٠١٠م، ص ٩٥–١١٥؛ العبدلي: حسين، الحجاز في العهد العثماني، النادي الأدبي الثقافي، جدة، ١٩٨٥م، ص ١٧٠–١٨٠؛ الزهراني: محفوظ بن سعيد، تحصينات مدينة أبها في الفترة مابين 1228 - 1337هـ ط1، المملكة العربية السعودية، وكالة الآثار والمتاحف، 1427هـ/2006م، ص325

(5) سليم الأول: كان سلطان الإمبراطورية العثمانية بين 917 - 926هـ/ 1512 - 1520م ، في عهده أحتل العثمانيين بلاد الشام والحجاز ومصر وضموها لإمبراطورتيهم. وكان أول سلطان عثماني لقب نفسه بالخليفة. أنظر، ياغي: إسماعيل احمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط3، الرياض، مكتبة العبيكان، 1435هـ/2014م، ص55

(6)ياغي: إسماعيل، الدولة العثمانية، ص59، 60.

(7) الأزرقي: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، ج١، ص ٢٤٥–٢٥٠؛ الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، ج٢، ص ٥٨–٦٥؛ سنوك: صفحات من تاريخ مكة، ص ١٤٠–١٤٨؛ الفقي: العمارة الدفاعية في الحجاز خلال العصر العثماني، ص ٩٥–١٢٥؛ العبدلي: الحجاز في العهد العثماني، ص ١٧٠–١٨٥

(8) الملاط: مادة بناء تستخدم لربط الطوب أو الطابوق أو الحجر ولملء الفراغات بينها. الملاط بصورة عامة يصنع على شكل عجينة تصبح صلبة حين تجف وتتكون من مواد مختلفة مث ل الطين أو الصلصال أو النورة والإسمنت أو خليط من هذه المواد وقد يضاف إليها الرمل. أنظر، صروف: يعقوب، المقتطف، د.ط، مصر، د.ن، 1313هـ/ 1896م، ص846

(9) عجيمي: هشام، قلعة الأزنم والوجه وضباء بالمنطقة الشمالية الغربية من المملكة العربية السعودية، مخطوط رسالة دكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة ام القرى، مكة المكرمة، 1406هـ/1986م، ص109

(10)الجهني: محمد، العمارة الحربية في الجزيرة العربية، ط1، القاهرة، الاكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، 1429هـ/ 2008م، ص50

(11)الحارثي: ناصر بن علي، زخارف الملاط والآجر في دار الهناء وقلعة اجياد ومنزل آل القرع بمكة المكرمة، مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، ع9، 1415هـ/1994م، ص254، 256، 258

(12)فهد بن عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، خامس ملوك المملكة العربية السعودية وأولهم اتخاذاً للقب خادم الحرمين الشريفين. هو الابن التاسع من أبناء الملك عبد العزيز الذكور، من زوجته الأميرة حصة بنت أحمد السديري. تولى مقاليد الحكم في 21 شعبان 1402 هـ الموافق 13 يونيو 1982م بعد وفاة أخيه غير الشقيق الملك خالد حتى عام 1426هـ/2005م. أنظر، الحربي: مبارك محمد، محاضرات في التاريخ المملكة العربية السعودية، ط3، جدة، خوارزم العلمية، 1440هـ/2019م، ص206

(13)الفايدي: تنيضب، اجياد الحي التاريخي بمكة المشرفة، صحيفة الجزيرة الإلكترونية، 2021/7/23م.

(14)https://www.al-jazirah.com/202120210723//rl2.htm

(15)صحيفة الرياض الإلكترونية: أجياد قلعة إسلامية وليست (أتاتوركية).

(16)https://www.alriyadh.com/29769

المصادر والمراجع:

(1)الأزرقي، محمد بن عبد الله. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. تحقيق: رشدي الصالح ملحس. بيروت: دار الأندلس، ١٩٦٥م، ج١.

(2)الفاسي، تقي الدين محمد. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام. بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ ج٢.

(3)سنوك هرخرونيه، كريستيان. صفحات من تاريخ مكة. ترجمة: دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٠هـ.

4(4) الفقي، عبد الله. «العمارة الدفاعية في الحجاز خلال العصر العثماني.» مجلة دراسات تاريخية، العدد ٢٣، ٢٠١٠م.

(5)العبدلي، حسين. الحجاز في العهد العثماني. جدة: النادي الأدبي الثقافي، ١٩٨٥م.البلادي: عاتق بن غيث، معالم مكة التاريخية والأثرية، ط1، مكة المكرمة، دار مكة، 1400هـ/1980م.

(6)جارشلي: إسماعيل حقي، أشراف مكة المكرمة وأمرائها في العهد العثماني، ترجمة: خليل علي، ط1، بيروت، الدار العربية للموسوعات، 1424هـ/2003م.

(7)الجهني: محمد، العمارة الحربية في الجزيرة العربي، ط1، القاهرة، الاكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، 1429هـ/2008م.

(8)الحارثي: ناصر بن علي، « زخارف الملاط والآجر في دار الهناء وقلعة اجياد ومنزل آل القرع بمكة المكرمة «، مجلة جامعة ام القرى للبحوث العلمية المحكمة، السنة السادسة، العدد التاسع، 1415هـ/1994م.

(9)الحربي: مبارك محمد، محاضرات في التاريخ المملكة العربية السعودية، ط3، جدة، خوارزم العلمية، 1440هـ/2019م.

(10)الزهراني: محفوظ بن سعيد، تحصينات مدينة أبها في الفترة ما بين 1228 – 1337هـ ط1، المملكة العربية السعودية، وكالة الآثار والمتاحف، 1427هـ/2006م.

(11)السباعي: احمد، تاريخ مكة، ج1، ط7، مكة المكرمة، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1415هـ/1994م.

(12)صروف: يعقوب، المقتطف، د.ط، مصر، د.ن، 1313هـ/ 1896م.

(13)عجيمي: هشام، « قلعة الأزنم والوجه وضباء بالمنطقة الشمالية الغربية من المملكة العربية السعودية «، رسالة دكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة ام القرى، مكة المكرمة، 1406هـ/1986م.

(14)الفايدي: تنيضب، « اجياد الحي التاريخي بمكة المشرفة « صحيفة الجزيرة الالكترونية، بتاريخ ياغي: إسماعيل احمد، الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ط3، الرياض، مكتبة العبيكان، 1435هـ/2014م.